

بسم الله الرحمن الرحيم
ترقيم المحاضرة في الاسطوانة (14)
بداية الكون والإنسان - المحاضرة السادسة
المرحلة الأولى من بداية الكون

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ، ونؤمن به ونتوكل عليه ، ونستهدي الله بالهدى ، ونعوذ به من الضلالة والردى ، من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، أرسله إلي الناس كافة ، رحمة لهم ورأفة بهم ، والناس يومها على شر حال ، في ظلمات الجاهلية يتقلبون ، وفي الشرك والوثنية غارقون ، دينهم بدعة ، ودعوتهم فرية ، فأعز الله الدين بمحمد صلى الله عليه وسلم : (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا) (النساء:80) ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿ الحشر/18 .

ألا يا من قد قيد بالهوى فما يستطيع فكاكا - أفق قبل يوم أليم
قد أتاكا أتاكا

بليت وما تبلي ثياب صباكا - كفاك نذير الشيب فيك كفاكا
ألم تر أن الشيب قد قام ناعيا - مقام الشباب الغض ثم نعاكا
ولم تر يوما مر إلا كأنه - بإهلاكه للهاكين عناكا
ألا أيها الفاني وقد حان حينه - أتطمع أن تبقي فليست هناكا
تسمع ودع من أفسد الغي سمعه - كأني بداع قد أتى فدعاكا
ورب أمان للفتي نصبت له - المنية فيما بينهن شراكا
أراك وما تنفك تهدي جنازة - ويوشك أن تُهدي هُديت كذاكا
ستمضي ويبقي ما تراه كما تري - وينساك من خلفته هو ذاكا
ألا ليت شعري كيف أنت إذا القوي - وهنت وإذا الكرب الشديد
علاكا

تموت كما مات الذين نسيتهم - وتنسي ويهوى الحي بعد هواكا
كأن خطوب الدهر لم تجر ساعة - عليك إذا الخطب الجليل أتاكا

أما بعد ، إخوتي الكرام هذه هي المحاضرة السادسة في السلسلة التي تتعلق بنشأة الكون وبداية الإنسان ، وقد ذكرنا في المحاضرة الماضية أنه إذا كانت الخلافة التي ميز الله بها الإنسان عن غيره من المخلوقات هي بمعنى التحويل والإنابة ، فهل الإنسان خليفة ينوب عن الله في أرضه أم يخلف من سبق بعد موته ؟ وبيننا أن المفسرين من السلف والخلف دارت أقوالهم حول هذين الرأيين ، فمنهم من يري أن الإنسان خليفة ينوب عن الله في تنفيذ الأحكام والعمل بشريعة الإسلام ، ومنهم من يري أن الخلافة التي ذكرها الله

إنما هي خلافة قرن لقرن يخلف بعضهم بعضا ، كما في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ .

وعلمنا أن استخلاف الإنسان في الأرض فعل من أفعال الله تعالى وأفعاله سبحانه فيها الكمال والجمال ، وتشهد لحكمته بالعظمة والجلال ، فالله لا يتصف إلا بالكمال المطلق الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه ، كالحياة والعلم والقدرة ، والسمع والبصر والرحمة ، والعزة والحكمة والعظمة ، وغير ذلك من أوصاف الكمال ، أما ضد ذلك من أوصاف النقص ، كالموت والعجز والظلم ، والغفلة والسنة والنوم ، فقد تنزه ربنا وتعالى عن ذلك فسيحه الموحدون ، وقال المؤمنون في وصفه كما قال المرسلون : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ، وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

أما إذا كان الوصف عند تجرده عن الإضافة في موضع احتمال ، فكان كمالا في حال ونقصا في حال ، فالمسلم العاقل يقف مدققا ، لا يثبت له إثباتا مطلقا ، ولا ينفيه عنه نفيًا مطلقا ، بل لا بد في ذلك من البيان والتفصيل ، والتقيد بما ورد ذكره في التنزيل ، فقد ورد من الألفاظ في القرآن ما ينسب مرة إلي الإنسان ، وينسب إلي الله لا على وجه النقصان ، كالمكر والخداع والنسيان ، والاستهزاء والكيد والخذلان ، وغير ذلك من الأوصاف ، وما يقال فيها سوف يقال في الاستخلاف .

يقول الراغب الأصفهاني في مفرداته : (الخلافة هي النيابة عن الغير إما لغيبة المنوب عنه وإما لموته وإما لعجزه وإما لتشريف المستخلف ، وعلى هذا الوجه الأخير استخلف الله أوليائه في الأرض) ، فاستخلاف الإنسان الوارد في القرآن له في الحقيقة معنيان :

الأول : استخلاف عن نقص الأوصاف بحكم طبيعة الإنسان ، ويكون عند عجز المستخلف عن القيام بملكه أو انعدام قدرته تدير أمره ، إما لغيابه أو قلة علمه ، وإما لمرضه أو موته ، كاستخلاف القائد نائبا على جنده أو قومه ، كما ورد في قوله تعالى عَنِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ، وفي الحديث الذي رواه البخاري بسنده عن سعد بن أبي وقاص   : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ إِلَيَّ يَبُوكُ وَاسْتَخْلَفَ عَلَيَّ ، فَقَالَ : أَتَخْلُفُنِي فِي الصِّبْيَانِ وَالنِّسَاءِ ؟ قَالَ : أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ نَبِيٌّ بَعْدِي ؟) .

ومن ذلك أيضا استخلاف ولي الأمر نائبا عنه قبل موته ، كما روي عن عبد الله بن عمر   قال : حَضَرْتُ أَبِي جِينَ أَصِيبَ ، فَأَشْتَوَا عَلَيْهِ وَقَالُوا : جَرَكَ اللَّهُ خَيْرًا فَقَالَ : رَاعِي وَرَاهِبُ ، قَالُوا : اسْتَخْلَفُ ، فَقَالَ : أَتَحْمِلُ أَمْرَكُمْ حَيًّا وَمَيِّتًا لَوَدِدْتُ أَنَّ حَظِّي مِنْهَا الْكَفَافُ لَا عَلَى وَلَا لِي ، فَإِنْ اسْتَخْلَفْتُ فَقَدْ اسْتَخْلَفْتُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي ، وَإِنْ أُنْزَكْتُكُمْ ، فَقَدْ تَرَكَكُمْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي ، رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ   : فَعَرَفْتُ أَنَّهُ جِينَ ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَيْرٌ مُسْتَخْلَفٍ (فالاستخلاف هنا عن قصر الأوصاف بحكم طبيعة الإنسان ، وذلك لعجز المستخلف عن القيام

بملكه أو انعدام قدرته تدبير أمره ، إما لغيابه أو قلة علمه كما تقدم ، وإما لمرضه أو موته ، هذا هو المعنى الأول لاستخلاف الإنسان الذي ورد في القرآن والسنة .

أما المعنى الثاني : فهو الاستخلاف عن كمال الأوصاف ، وذلك إذا كان لتشريف الإنسان وإكرامه أو اختباره وامتحانه ، وليس لعجز المستخلف عن القيام بشؤونه ، كالطبيب في سنة الامتياز ، إذا فحص مريضا في حضرة الأستاذ ، فإن اجتاز الامتحان فقد فاز ، ونال الشرف بشهادة عظيمة ، وهذا معلوم في كل فطرة سليمة ، وإن لم يؤد الواجب على الوجه المطلوب ، عاقبه الأستاذ بالرسوب ، ونصحه بالاجتهاد وتصحيح العيوب ، وإن تكرر منه الفشل والنسيان ، عاقبوه بالمنع والحرمان من أي شرف أو فضل ، وحق لهم أن يفعلوا به ذلك ، وأن يفصلوه من دراسته كذلك .

فلما قال الله عز وجل للملائكة في شأن الإنسان : **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً** تحقق في الخلافة المعنيين ، الأول : أن يخلف بعضهم بعضا على وجه النقصان ، والثاني : أنه خليفة لله في الأرض على وجه الامتحان ، وبهذا يزول الإشكال ويتألف الرأيان ، فقوله تعالى : **آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْقَبُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ قَالِ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْقَبُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ** ، يعني مستخلفين عن سبق على وجه النقص وتعاقب الأجيال ، ومستخلفين في أرض الله أيضا على وجه الكمال ، وكذلك يقال في استخلافه داود لما خاطبه الله فقال : **يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَهَاجِمٌ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا تَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ** .

جعله خليفة عن الملك طالوت لما قتل عدو الله جالوت ، وجعله خليفة في أرض الله ليحكم بين الناس بما أنزل الله ، وهكذا ابتلي الله سائر الناس في الحياة ، واستخلف الإنسان واسترعاه ، كما جاء أيضا في قول الله : **أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَهُ مَعِ اللَّهُ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ** ، وقوله : **هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا** ، وقوله أيضا : **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ، وقوله : **قَالُوا أَوْدِيَّتَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** .

هذه الآيات تدل على المعنيين معا ، أن الإنسان خليفة لمن سبق من الذرية عن نقص في الأوصاف البشرية ، وخليفة لله على وجه الكمال ، استخلفه رب العزة والجلال لإظهار المعاني الشرعية ، غير أنه لا حول له ولا قوة في معاني الربوبية ، ويقول تعالي : **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلِغَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ**

وَإِنَّهُ لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَقَوْلُهُ : ۝ وَرَبُّكَ الْعَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ يَعدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ ۝ وَقَوْلُهُ : ۝ قَانَ تَوْلُوا فَقَدْ أبلغتكم مَا أُرسلتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ۝ .

فالله استخلف الإنسان في الأرض وهو معه يتابعه ، ومن فوق العرش يراه ويسمعه ولكنه بين أن استخلافه في هذه الدار ، على وجه الابتلاء والاختبار ، وعلى وجه الأمانة والانتظار ، وأن يكون مصيره إما إلي جنة وإما إلي نار ، فقال رب العزة والجلال : ۝ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ، إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ، إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ، إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَعْلَالًا وَسَعِيرًا ۝ ، وقال أيضا : ۝ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ ۝ .

فهو استخلاف ليس عن غيبة المستخلف ، كما يتوهم من لم يفهم ما ورد في كتاب الله على الوجه الصحيح ، فإن الاستخلاف وإن اقتضى الغياب بين الناس في العادة ، إلا أنه هنا كان السبب المباشر في ظهور عالم الغيب والشهادة ، فالغيب والشهادة أمران نسيان يرتبطان باستخلاف الإنسان ، فالله غيب بالنسبة للإنسان لأن الله جعل مداركه محدودة ، فهما غيب وشهادة ليس بالنسبة لعلم الله بخلقه ، ولكن بالنسبة لعلم الإنسان بفعل ربه ، وعلمه بذاته وأسمائه وأوصافه ، فقال سبحانه تعالى في شمولية علمه لكل

صغيرة وكبيرة في خلقه : ۝ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزِدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ، عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ، سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَن أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ۝ فهو من فوق العرش يرانا ويسمعنا وهو الذي يتولي شئون خلقنا ، ولا يخفي عليه شيء من أمرنا ، وقال تعالى أيضا في إحاطته بعالم الغيب والشهادة : ۝ ذَلِكَ عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ ، وقال : ۝ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۝ .

وأما علمنا بالله الذي استخلفنا في أرضه فقد قال في المقابل عن حدود علم المستخلف : ۝ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝ ، وقال : ۝ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝ .

فعلم الإنسان مهما بلغ محدود ، وحواسه لها حدود وقيود ، وهو محاسب عليها في يوم موعود ، ولذا كان النطق بشهادة الحق أمرا وتكليفا ، وترك الزور وقول الصدق مدحا وتشريفا ، كما قال سيد الخلق تحذيرا وتخويفا : (أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ ؟ قُلْنَا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ ، وَكَانَ مُتَكِنًا فَجَلَسَ فَقَالَ : أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ ، فَمَا زَالَ يَقُولُهَا حَتَّى قُلْتُ : لَا يَسْكُتُ) .

وهذا حديث صحيح رواه البخاري من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر عن أبيه ، وقال الحق سبحانه : ۝ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا

كِرَامًا ، فمن الجهل والعيب ادعاء الإنسان لعلم الغيب أو القول على الله بلا علم ، يقول الحق تبار وتعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ ، ومن أجل ذلك أيضا كلف الله الإنسان بالتصديق الجازم لأركان الإيمان ، وكل خبر ورد ذكره في القرآن ، فقال تعالى في توضيح هذه المعان : ﴿ الم ، ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ، أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

فأركان الإيمان التي وردت في دين الله ، وظهر من خلالها سر الحياة ، حصرها رسول الله صلي الله عليه وسلم في أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، روي الإمام مسلم من حديث عبد الله بن عمر أنه قال : حَدَّثَنِي أَبِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ لَا يَرِي عَلَيْهِ أَثَرَ السَّفَرِ وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ حَتَّى جَلَسَ إِلَيَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَيَّ رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْدَيْهِ وَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا قَالَ صَدَقْتَ قَالَ فَعَجَبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ قَالَ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ قَالَ صَدَقْتَ قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ قَالَ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّيِّئَةِ قَالَ مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا قَالَ أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا وَأَنْ تَرَى الْحَفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّيْءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ قَالَ ثُمَّ أَنْطَلِقُ فَلَيْتُ مَلِيًّا ثُمَّ قَالَ لِي يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ فَإِنَّهُ جَبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ) .

فأركان الإيمان التي ذكرها رسول الله لجبريل وهو في صورة الأعرابي أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره ، وقد صدقه جبريل على ذلك ، وهذه الأركان تضمنت في ترتيبها سر الحياة ، وبيان سر الحياة في هذه الأركان ، وتفسيرها للحقائق العظمي في حياة الإنسان ، على النحو المقصود في ترتيب الرسول للأركان ، يراه أصحاب البصيرة مشهودا وبين الكلمات موجودا ، فالمعني الموضوع بين أركان الإيمان ، أن تؤمن بالله الذي أنزل ملائكته بكتبه على رسوله ليحذروا المستخلفين من يوم يقوم فيه الناس لرب العالمين ، فإذا انتهى الناس بعد العرض والحساب ، واستقروا في الآخرة للثواب والعقاب ، عندها يتم قدر الله كما ورد في أم الكتاب ، قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وهذه حقيقة الإيمان بالقدر خيره وشره ، وينبغي أن تفهم أحاديث

الإيمان بالقدر على ضوء حقيقة الابتلاء واستخلاف الإنسان في الأرض ، فمن حديث عمرو بن العاص   الذي رواه الإمام مسلم في كتاب القدر أنه قال : (سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) .

ومن حديث علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه الذي رواه البخاري ومسلم أنه قال : (كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَيْعِ الْعَرْقِدِ فَأَتَانَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ - الْعُودِ الصَّغِيرِ - فَتَكَّسَ - أَطْرَقَ بِرَأْسِهِ إِلَى الْأَرْضِ - فَجَعَلَ يَنْكُثُ بِمِخْصَرَتِهِ - يَعْنِي يَضْرِبُ بِهَا فِي الْأَرْضِ ضَرْبًا خَفِيفًا - ثُمَّ قَالَ : مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ مَا مِنْ نَفْسٍ مَنُفُوسَةٍ إِلَّا كُتِبَ مَكَانُهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَإِلَّا قَدْ كُتِبَ شَقِيئَةً أَوْ سَعِيدَةً فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا تَنْكُلُ عَلَيَّ كِتَابِيًا وَتَدْعُ الْعَمَلَ ، فَمَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَيَّ عَمَلُ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَيَّ عَمَلُ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ص : أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ السَّعَادَةِ وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ الشَّقَاوَةِ ثُمَّ قَرَأَ : (قَامًا مَنْ أَعْطَى وَانْقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيسِرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَعْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيسِرُهُ لِلْعُسْرَى)

وروي الإمام مسلم من حديث جابر بن عبد الله أن سراقَةَ بِنَ مَالِكِ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ بَيْنَ لَنَا رَبِّنَا كَاتِبًا خُلِقْنَا الْآنَ فِيمَا الْعَمَلُ الْيَوْمَ أَيْمًا جَفَتْ بِهِ الْأَقْلَامُ وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ أَمْ فِيمَا تَسْتَقِيلُ قَالَ لَا بَلْ فِيمَا جَفَتْ بِهِ الْأَقْلَامُ وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ قَالَ فِيمَا الْعَمَلُ ؟ قَالَ فَقَالَ اعْمَلُوا فَكُلُّ مُيَسَّرٍ لِعَمَلِهِ ، وَتَسَاتَى مَعْنَى بِإِذْنِ اللَّهِ سِلْسِلَةٌ كَامِلَةٌ نَبِيْنُ فِيهَا حَقِيقَةُ الْإِيمَانِ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدْرِ وَأَنَّهَا أَسَاسُ التَّوْحِيدِ وَمَبْعَثُ التَّقْوَى فِي قُلُوبِ الْعَبِيدِ .

نعود إلى موضوع الاستخلاف ونقول إن استخلاف الإنسان في الأرض استخلاف مقيد غير مطلق ، استخلاف مقيد بالخضوع للتكليف وإظهار العبودية ، والعمل في أرض الله بالإرادة الشرعية ، والحكيم في الرعية بالشرعية الإسلامية ، كما ورد عن خير البرية أنه قال : (كَلِّمُوا رَاعٍ وَكَلِّمُوا مَسْئُولًا عَنْ رَعِيَّتِهِ الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ رَوْحِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَكَلِّمُوا رَاعٍ وَمَسْئُولًا عَنْ رَعِيَّتِهِ) وهذا الحديث حديث صحيح رواه البخاري بسنده عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنه .

وليس استخلاف الإنسان في الأرض نيابة عن الله في معاني الربوبية ، أو تخويلا لغيره في إرادته الكونية ، سبحانه وتعالى أن يتخذ شريكا له في ملكه ، أو يتخذ وليا من الذل وينعزل عن خلقه ،   وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا   وقال :   قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ

الْحَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝ وقال : ۝
 اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي
 السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا
 بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ
 كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝
 وقال : ۝ إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ رَأَيْتَا
 أَنْ لَمْ تَرَيا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝ وقال : ۝ أَلَمْ تَرَ
 أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ
 وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ
 رَحِيمٌ ۝ .

فإذا ظلم الإنسان نفسه وخلع رداء العبودية ، لينازع ربه في وصف
 الربوبية أو يشاركه في العلو والكبرياء ، وعظمة الأوصاف والأسماء ، كما
 فعل أكابر السفهاء فرعون وهامان ومن قبلهما النمرود بن كنعان ، فليس
 للظالم إلا الشقاء والحرمان ودوام العذاب في النيران ، وليس بعد طرده من
 الجنان خسران ، كما قال رسول الله صلي الله عليه وسلم : (يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ
 وَجَلَّ الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي ، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي ، فَمَنْ تَارَعَنِي شَيْئًا مِنْهُمَا أَلْقَيْتُهُ فِي
 جَهَنَّمَ) وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلي
 الله عليه وسلم قال : (الْعِزُّ إِزَارُهُ وَالْكَبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ فَمَنْ يُتَارَعِنِي عَدْبَتُهُ) ،
 وروي أيضا من حديث عبد الله بن مسعود ۝ أن النبي صلي الله عليه وسلم
 قَالَ : (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ) .

وإذا كانت طبيعة العاقل الأمين في علاقته بمن استأمنه أنه يرجع إليه في
 طلب الهداية والعون والاستبصار ، وأن يعينه في الحفاظ على الأمانة من شر
 الخيانة أو جميع الأخطار ، ليبقى بوصفه أمينا صادقا صورته نقية في جميع
 الأنظار ، فلما كانت هذه صفة الأمانة في هذه الدار ، فإن القرآن جاء بإحياء
 فطرة التوحيد في نفوس المستخلفين ، ورد الملك إلي رب العالمين
 والخضوع لله ، أن يكون الإنسان مع ربه دائم الصلة ، ويرجع دائما إلي الذي
 خوله ، ويعتمد عليه في كل مسأله فيطلب منه ، ، وأن يرجع الإنسان دائما
 إلي ربه يستعين به ويتوكل عليه ، ويستهديه ويستغفره : ۝ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا
 هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ وقال أيضا : ۝ وَقَالَ
 رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ
 دَاخِرِينَ ۝ وقال أيضا : ۝ إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا
 الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝ وقال أيضا : ۝ إِنِّي
 تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى
 صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ وقال أيضا : ۝ وَلِلَّهِ عَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ
 الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝ ، وفي الحديث
 الذي رواه الإمام مسلم أن رسول الله صلي الله عليه وسلم كان يقول في
 سفره :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾ ،
اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى ، وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى اللَّهُمَّ
هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا ، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ ،
وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعَثَائِ السَّفَرِ ، وَكَآبَةِ الْمَنْظَرِ ،
وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالْأَهْلِ ، وَإِذَا رَجَعْتَ فَآلِهِنَّ ، وَرَادَ فِيهِنَّ أَيُّونَ تَائِبُونَ
عَابِدُونَ ، لَرَبِّنَا حَامِدُونَ) .

فانظر إلي قوله : وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ : فيه كمال التواضع والافتقار إلي
الله ، فالله استخلف الرسول في أهله وجعلهم أمانة بين يديه ، والرسول
يعلن لربه عجزه عند سفره ويستودع ربه أمناته ، كأنه يعيد الأمانة إلي
صاحبها ويطلب معونته في المحافظة عليها .

وكذلك جاز أن يستخلف رسول الله صلي الله عليه وسلم ربه على أمته
عند ظهور الدجال ، على اعتبار أنه يرد الأمر إلي من استخلفه في الأرض
افتقارا ، وإظهارا لعجزه وإقرارا ، أنه لا نجاة لأمته إلا إذا استعانوا بربهم على
الدجال ، فقد روي الإمام مسلم من حديث النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ ٣ أنه قَالَ ،
ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدَّجَالَ ذَاتَ غَدَاةٍ ، فَحَفَّضَ فِيهِ وَرَفَعَ ،
حَتَّى ظَنَّنَاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ ، فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ ، عَرَفَ ذَلِكَ فِينَا فَقَالَ مَا شَأْنُكُمْ
؟ ، قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، ذَكَرْتَ الدَّجَالَ غَدَاةً فَحَفَّضْتَ فِيهِ وَرَفَعْتَ ، حَتَّى ظَنَّنَاهُ
فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ ، فَقَالَ عَيْبُرُ بَنِي حَارِثَةَ أَخَوْفِي عَلَيْكُمْ ، إِنْ يَخْرُجُ وَأَنَا فِيكُمْ
فَأَنَا حَاجِبُهُ دُونَكُمْ ، وَإِنْ يَخْرُجُ وَلَسْتُ فِيكُمْ ، فَاْمُرُوا حَاجِبَ نَفْسِهِ ، وَاللَّهِ
خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ) .

فهذا الاستخلاف الذي ورد في الحديث سببه عجز المستخلف عن مواصلة
الحياة ، ولما كان الموت مكتوبا على الجميع حتى على رسول الله ، وكان لا بد
للأمانة من الصيانة حتى ترد إلي مالکها يوم الحساب ، كان ردها إلي صاحبها
في الدنيا هو الكمال ، وكانت الاستعانة برب العزة والجلال ، شأن الموحدين
الصادقين في كل حال ، وعلى هذا نخلص إلي القول بأن الله لما قال
لملائكته : تضمن استخلاف الإنسان في الأرض عدة أمور مجتمعة :

الأمر الأول : أن الإنسان خليفة لله في الأرض على معني الكمال ، وهو
الاستخلاف الذي يقصد به الاختبار والابتلاء ، فالإنسان لما حمل الأمانة
ورفضتها المخلوقات ، هيا الله الكون ليحقق استخلاف الإنسان في الأرض
بما يسمح بوجود أمين وأمانة ومالك لها ، فالإنسان أمين في ملك الله وراز
أن ينسب إليه الملك على سبيل الاستخلاف والابتلاء والأمانة فقط ، والله
مالك للأمانة بالأصالة ، وهو المنفرد بالخلق والأمر والملك فله مطلق التدبير
الكوني والشرعي ، والأرض هي محل الابتلاء والأمانة التي سيسأل عنها
الإنسان ، والله يعطي من خيراتها لمن يشاء على سبيل الأمانة والابتلاء وعلى
هذا فالإنسان خليفة الله في الأرض لإظهار معاني العبودية فقط ، من القيام
بشرعه وتنفيذ أمره سواء كان على المعني الخاص الذي يراد به إمام الناس
أو المعني العام الذي يتناول سائر الناس .

كما إن الإنسان إن أطاع الله وأدى الأمانة والحقوق لأهلها وكان خاضعا لله موجهها لها في دنياه على وفق ما أراده الله ، أبقاه في دار الجزاء على هذا الشرف الذي ناله في الابتلاء عند عرض الأمانة ، وإن كان كافرا بالله مشركا ، كان ظلوما جهولا خاسرا في الابتداء والانتها .

الأمر الثاني : أن الخلافة التي جعلها الله للإنسان هي خلافة ينوب فيها بعضهم عن بعض ، وبخلف كل جيل منهم جيلا سابقا ، وذلك لما لهم من معاني النقص وقصر الحياة ، فالموت يؤدي بالضرورة إلي تعاقب الأجيال على وراثة الأرض وخلافتها .

الأمر الثالث : أن الاستخلاف أدى إلي ظهور عالم الغيب والشهادة بالنسبة للإنسان لا بالنسبة لربه ، فالله غيب لا يراه الإنسان في الدنيا من أجل الابتلاء ، لكن الله يعلم ما توسوس به نفسه وهو أقرب إليه من حبل الوريد ، وعلى ذلك أصبح الإيمان بالغيب بالنسبة للإنسان هو أساس البنيان الذي يعيش به في الحياة .

وهنا رواية يحتج بها من أنكر أن الإنسان خليفة عن الله في أرضه على وجه الابتلاء ، وذلك لأنه فهم أن الاستخلاف يقتضي غياب الله عن كونه ، فيقولون : ما غاب الله حتى يستخلف الإنسان ، وقد بينا أن الاستخلاف أدى إلي ظهور عالم الغيب والشهادة بالنسبة للإنسان لا بالنسبة لربه ، وأن الاستخلاف في ما يتعلق بتوحيد العبودية فقط ، ولا مجال فيه لمعاني الربوبية ، لكن الرواية التي رويت عبد الله بن أبي مليكة جاء فيها : (قيل لأبي بكر   : يا خليفة الله فقال : بل خليفة محمد وأنا أرضي به) قال الهيثمي : (ابن أبي مليكة لم يدرك أبا بكر) وروي الخلال مثل ذلك عن عمر بن الخطاب   بإسناده لا يصح لأن فيه مجهول .

لكن على فرض صحة الرواية فإن أبا بكر أجاب القائل بما يجب أن يقال في مثل هذا الحال ، لأن تعميم القول بأن الإنسان خليفة الله ، وإطلاق ذلك دون تقييد أمر باطل كما تقدم ، فالخليفة يكون عن كمال وعن نقص ، فإذا كان الاستخلاف لعجز المستخلف فهو نقص ، وإذا كان لابتلاء المستخلف فهو كمال ، أما الإطلاق فيقتضي الاحتمال وهو باطل ، ولذا أنكر أبو بكر التعميم ، وذكر الاستخلاف الذي يدل على التواضع والتسليم ، فالقائل له يا خليفة الله أراد له التعظيم ، فأراد له أبو بكر له الأدب والتعليم ، فنفي أن يكون خليفة عن الله ، ليثبت لله معاني الكمال ، وينفي النقائص عن رب العزة والجلال ، فأراد بقوله بل خليفة رسول الله التواضع في المنزلة ، والافتقار إلي الله في الخلافة المعضلة ، وأنه يتابع النبي متابعة كاملة ، لذلك قال منبها على هذه المسألة : وأنا راض به ، أي راض بأن أسير على نهج رسول الله عبدا لله في ملكه ، خادما لشرعه في أرضه ، متبعا كتابه وسنة نبيه ، وهذا يدل على أن أبا بكر   كان رجلا مدققا ، لم يثبت الخلافة إثباتا مطلقا ، ولكنه كان لكلام الله مصدقا ، حيث قال لملائكته :   إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً   ، فالعاقل لن يتوقع من أبي بكر   لو قال له قائل : يا خليفة الله ، أن يقول له أحسنت إن ممتاز .

كما أن عبارة : (خليفة الله في الأرض) ، ترددت بين السلف الصالح ولم يكن بينهم من يمنعها إلا على وجه المبالغة في الوصف وإطلاقه ، والله عز وجل استخلف الإنسان في أرضه على وجه الابتلاء ببناء على حمله الأمانة ، فإن أداها كما ينبغي أكرمه الله في الدنيا وزاد من إكرامه في الآخرة ، وإن كفر فعليه الكفر والعصيان واستوجب المقنت والخسران وهو الذي ضيع نفسه بعد هذا التكريم ، وحق أن يلوم نفسه في العذاب الأليم ، كما قال تعالى في كتابه الكريم : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾ .

ذكر أبو سعيد الخراز في شأن الأنبياء والعلماء والصالحين كيف ملكوا الدنيا وكانوا أزهق الناس فيها ؟ أنهم كانوا أمناء لله تعالى في أرضه على سره وعلى أمره ونهيه وعلمه وموضع وديعته والنصحاء له في خلقه وبريته ، وهم الذين عقلوا عن الله تعالى أمره ونهيه وفهموا لماذا خلقهم وما أراد منهم وإلي ما ندهم ؟ فسمعوا الله تعالى يقول : ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ ﴾ ، ثم قال : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ ، فأيقن القوم أنهم وأنفسهم لله تعالى ، وكذلك ما خولهم وملكهم فإنما هو له ، غير أنهم في دار اختبار وبلوى وخلقوا للاختبار والبلوى في هذه الدار ، فمن ملك شيئاً من الدنيا فهو معتقد أن الشيء لله تعالى لا له إلا من طريق حق ما خوله الله واستخلفه ، وهو مبلي به حتى يقوم بالحق فيه ، فكانوا خزانا لله جل ذكره خارجين من ملكهم في ملكهم ناعمين بذكر الله وعبادته ، غير ساكنين إلي ما ملكوا ، لا يستوحشون من فقدته إن فقدوه ، ولا يفرحون به إن وجدوه ، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وللحديث بقية بإذن الله تعالى والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .